التجارة الاسلامية

وأثرها في الحضارة (١)

اسطفن لمبرنز
احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية

لم يعرف تاريخ العلم قوماً كانوا اقل انصافاً لفضلهم واشدّ ظلماً لهُ من جماعة المؤرخين ، فكأني بهم قد افرغوا جهدهم في صدّ الناس عنهُ ومنعهم من ارتياد مناهله . كيف لا ، وقد جردوه من كل متعة ورواء ، وامتصوا منهُ ماء الحياة ، ولم يبقوا فيهِ الاَّ هيكلاً عظميًّا من اسماء وتواريخ ليس بينها وبين حياتنا الحاضرة علاقة وثيقة او سبب قويّ . فكانت نتيجة الجهود التي سكبوها في تلك المؤلفات الضخمة والكتب الجسيمة انهم ، عوضاً من تحبيب هذا الفن الى الناس وتشويقهم الى اقتطاف ثمراته اليانعة ، جعلوهم ينصرفون عنهُ ويصدفون عن مرائمه وحقوله ولا يرون في درسه كبير لذّة او عظيم غَناء . لكنّ التاريخ يأبى ان يظلّ اسيراً ضمن النطاق الجائر الذي قيّدوه بهِ ، فهو لا يكتسي رواءه ونضارته الاَّ اذا لامس الحياة واتصل بها اتصالاً وثيقاً ، اذ ليس هو ، في جوهره ، سوى تطور الحياة البشرية باختلاف نواحيها وتعدد الوانها ، يستمد روحه من حياة الطبقة العامة من الناس وطرق معيشتهم واحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والعقلية : فكم في البيوت الوضيعة والطرقات العامة ما هو اجدر بالحفظ في بطون التواريخ من اسماء الملوك والوقائع والحروب لانهُ اصدق منها تمثيلاً لحياة الامة ولون معيشتها وتطوّر احوالها

فاذا حاولت ان احدثكم في موضوع تاريخي ، فسوف ابتعد — ما استطعت — عن الخلفاء والامراء والحكام ، وسوف اُصم اذني وآذانكم عن سماع صليل السيوف وقرع الطبول ونفخ الابواق ، واسعى واياكم الى ناحية خصبة غنية من الحياة الاسلامية القديمة لم تنل من المؤرخين حقها من الدرس والاهتمام ، مع ما كان لها من الاثر القوي والصدى البعيد في تاريخ الشرق والغرب : اعني بها التجارة الاسلامية واثرها في الحضارة . ليس قصدي ان اعود بكم الى الجذور القديمة التي نبتت منها حركة التجارة الاسلامية ، فاصوّر لكم الجزيرة العربية في الازمنة التي سبقت الاسلام ، واحدّد الطرق التجارية التي كانت تخترقها ، والدول والمدن الزاهرة التي قامت على اساس تجارتها — كمين وسبأ وحمير وتدمر والبتراء ومكة ، واصف ما كان لهذه الدول والمدن من الشأن في وصل حضارة الهند وثقافته بمدنية بلدان الشرق الادنى والبحر الابيض المتوسط ، فالقول في ذلك — كما تعلمون — واسعٌ مستفيض لا مجال لاستيعابه في هذا المقام ، وكفى تلميحاً اليهِ ان نورد شهادة

(١) محاضرة القيت في كلية المقاصد الخيرية في بيروت

الجغرافي اليوناني استرابون (Strabo) الذي قال : « العرب جميعهم اهل تجارة » ، والقول المتداول عن اهل مكة قبل الاسلام : « من لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء »

ذكرنا آنفاً ثمر بهذا الدور التحضيري الذي غرست فيه بذور التجارة الاسلامية ، ونجوز دور الفتوحات الذي عقبه والذي نُشرت به راية الاسلام من حدود الصين الى سواحل الاطلانتيك فوحدت الاقطار الشاسعة تحت حكم واحد وهدمت الحواجز التي كانت تفصل بينها ، ولنتنقل رأساً الى قلب العصر العباسي (الى القرنين الثالث والرابع هـ . ، التاسع والعاشر م) حين وصلت المدنية الاسلامية الى اعلى قممها ولنراقب تلك الحركة التجارية المفعمة بالقوة والنشاط التي كانت تتغلغل في قلب الامم الاسلامية وجوانبها ، وتربط بينها وبين الامم التي تجاورها وتنقل منها واليها بذور الحضارة والثقافة والمدنية

لو كنت يا اخي تاجراً في ذلك العهد لما سكنت بيروت لانها لم تكن قد اكتسبت بعد مكانة تجارية ، وانما كنت استوطنت بلداً غيرها على الساحل السوري كطرابلس او صور او عكة حيث تجتمع السفن « المفئات في البحر كالاعلام » وتلتقي تجار المسلمين زملاءهم الغربيين ، ولكان لك في بلدك المستودعات الواسعة لخزن البضائع التي تستوردها من بلدان الشرق وتصدّرها الى الغرب ، فان وظيفتك كانت في ذلك العصر — كما لا تزال الى اليوم — ان تقوم وسيطاً بين الشرق والغرب وتكون حلقة اتصال لطرق التجارة التي كانت في القرون الوسطى تسير من الشرق الى الغرب فالعكست اليوم ، بعد نهضة اوربا الحديثة ، وغدت تجري من الغرب الى الشرق

واذا اسعفك الدهر والست تجارتك فلا بُدّ ان تكون بينك وبين التجار الغربيين — واشهرهم سكان المدن الايطالية — اتفاقات ومقاولات تجارية تسعى الى القيام بها وتجني من ورائها الربح العظيم . ولكنك اذا احببت ان تلمس الحركة التجارية في صميمها وتشعر بقوتها وبالحياة التي كانت تدب فيها فلا بُدّ لك من الاتصال بالطرق التجارية التي كانت تخترق المحيط الهندي وتصل بين الهند والصين من جهة وبين بلدان الشرق الادنى ومن ورائها اوربا من جهة اخرى . فالمحيط الهندي كان في ذلك العهد اعظم ميدان للاعمال والمشروعات التجارية ، وفي مياهه وشواطئه كانت تلتقي مراكب الامم المختلفة وتتبادل بضائعها ومحصولات بلادها . فلا غنى لنا اذن من ان نلقي نظرة عجلى على الطرق الرئيسية للتجارة الواسعة التي كانت تدور اعمالها في ذلك الميدان الفسيح

كانت قاعدة هذه التجارة ومحط رحالها الموانىء الواقعة على شواطىء الخليج الفارسي كالبصرة والأُبُلّة وسيراف : منها تخرج السفن الصينية الكبيرة والمراكب العربية السريعة ، بعد ان يكون التجار قد افرغوا بضائعهم التي حملوها من الصين والهند وابتاعوا حاجتهم من اللؤلؤ الذي يُغاص عليه في مياه الخليج الفارسي والذي كان ولا يزال اعظم ما تصدّره تلك البلاد . ثم تعبر السفن مضيق هرمز الى خليج عمان فتزور بصحار عمان ومسقط حيث تأخذ مؤونتها من الماء والطعام لسفرة طويلة قد تدوم شهراً او تزيد ، ثم تقلع الى الهند او بالاحرى الى القسم الغربي منهُ — وهو الذي

كان يدعوه العرب « السند » — وترسو في موانئه فيزل اليه التجار ويبتاعون تلك المحصولات الثمينة المتنوعة التي اشتهرت بها بلاد الهند منذ اقدم الازمنة : وهي البهارات والعطور والعقاقير والاخشاب والعاج والحجارة الكريمة . وفي السند يقول الرحالة المقدسي : « هذا اقليم الذهب والتجارات : والعقاقير والآلات ، والقنايد والخيرات » والارزاز والموز والاعجوبات ، به رخص وسعة ونخيل وثمرات ، وعدل وانصاف وسياسات ، وبه خصائص وفوائد وبضاعات ، ومنافع ومفاخر ومتاجر ومصانعات [١] . ويظل تجارنا ينتقلون بمراكبهم بين موانئه الى ان يصلوا الى ساحله الجنوبي المعروف ببلاد الملبار ثم يدورون حوله ويمرون في المضيق الفاصل بين شبه جزيرة الهند وجزيرة سيلان — او كما كان يدعوها العرب « سرنديب » — فترسو المراكب في بعض شواطئها ويشتري التجار من محصولاتها — واعظمها الياقوت والحجارة الكريمة — واذا كانت حركة الرياح غير موافقة وكان بين التجار من تستهويه الرحلة ومشاهدة الآثار نزلوا الى برها وتسلقوا جبالها لزيارة « القدم » وهو — على ما يعتقدون — اثر بارز لموطىء قدم ابينا آدم عليه السلام

ومن سرنديب تقلع السفن قاصدة جزر الهند الشرقية (جاوه وسومطرة) — وقد كانت تعرف عند العرب ببلاد الزابج — وهي غنية باللبان والكافور والعود الهندي والقرنفل ، ومنها تسير رأساً الى الصين فتصل — بعد سفر طويل — الى مدينة خانفو وهي ، بشهادة التاجر سليمان الذي قطع هذه الطريق البحرية مراراً في منتصف القرن التاسع م . « مجتمع تجارات العرب واهل الصين » [٢] . واهل الصين مشهورون منذ اقدم الازمنة بدقة صناعاتهم واتقان فنونهم ، واشهر مصنوعاتهم التي كان التجار المسلمون ينقلونها الى الغرب : الحرير والفخار . قال التاجر سليمان عن صناعاتهم : « واهل الصين من احذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيه احد من سائر الامم » [٣] وذكر رقة حريرهم فوصفها بالقصة التالية : « وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره انه صار الى خصي كان الملك انفذه الى مدينة خانفو لتحبير ما يحتاج اليه من الامتعة الواردة من بلاد العرب فرأى على صدره غلالاً يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه فقدر انه قد ضاعف بين ثوبين منها فلما الح في النظر قال له الخصي اراك تديم النظر الى صدري فعلم ذلك فقال له الرجل عجبت من خلال يشف من تحت هذه الثياب فضحك الخصي ثم طرح كمه قبله الى الرجل وقال له اعدد ما علي منها فوجدها خمسة اقبية بعضها فوق بعض والخلال يشف من تحتها والذي هذه صفته من الحرير تام غير مقصور والذي يلبسه ملوكهم ارفع من هذا واعجب » [٤]

واذا تقدمنا الى عصر ابن بطوطة (القرن الرابع عشر ، الثامن هـ .) — والراجح عندنا ان

(١) احسن التقاسيم (طبعة دي غويه — ليدن) ص ٤٧٤

(٢) Reinaud, Relation des Voyages dans l'Inde et à la Chine (باريس ١٨١٨) م ٢ ، ص ١٣

(٣) ص ٧٥ (٤) ص ٧٤ — ٧٥

ما يذكره هذا الرحالة ينطبق ايضاً على العصر الذي نصوره الآن لاشتداد حركة التجارة فيه — وجدنا ان السفن لا تلبث ان ترسو في ميناء خانفو حتى يعمد اليها عمال الجمرك ويفتشوا رجالها واموالها : « وعادة اهل الصين اذا اراد جنك من جنوكهم السفر سعد اليه صاحب البحر وكتب له وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين سعد اليه ايضاً وقابل ما كتبوه بأشخاص الناس فان فقدوا احداً ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فاما ان يأتي ببرهان على موته او فراره او غير ذلك مما يحدث عليه والاّ اخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك امروا صاحب المركب ان يملي عليهم تصيراً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من خيار ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الاّ بالصين انهم الاّ انهُ كان بالهند ما يقرب منهُ وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها اغرم احد عشر مغرماً ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم »[1]

ولعلّ أبلغ شاهد على توثّق العلاقات التجارية بين الصين والبلدان الاسلامية وجود جالية اسلامية في مدينة خانفو لها من العدد والنفوذ ما حمل امبراطور الصين على منحها استقلالها الديني والقضائي « وذكر سليمان التاجر ان بخانفو وهو مجتمع التجار رجلاً مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون الى تلك الناحية بتوخي ملك الصين ذلك واذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين وان التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئاً في احكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل واحكام الاسلام »[2] . ولم تكن تجارة المسلمين لتقف عند حدود خانفو وامثالها من الموانىء الصينية بل كانت تتجاوزها الى داخل البلاد وتتصل بالمدن والمراكز الصناعية الهامة ، كما ان بعض تجار المسلمين وتجارتهم كانوا يخاطرون ببراكبهم التجارية الى البحور الشمالية ؛ وليس من المستبعد ان يكونوا قد وصلوا الى اليابان او شبه جزيرة كوريا

هذه ، هي اهم طريق كانت تسير بها التجارة الاسلامية لانها تصل بين بلدان الشرق الادنى وبين البلاد التي كانت في ذلك العهد منبع البضائع والتحف والمحصولات الزراعية والصناعية وقد كانت هناك طرق بحرية اخرى لم تبلغ شأو هذه ومكانتها : منها الطريق الفرعية التي يصح ان نعدها بمثابة الطريق الرئيسية الاولى وهي التي تسير من الخليج الفارسي وتدور حول بلاد العرب فتمر بموانىء هديدة على ساحل الجزيرة الجنوبي واشهرها ظفار وعدن ثم تصعد في البحر الاحمر حتى تصل الى جدة او ثغر عيذاب على الشاطىء المصري . وبهذه الطريق البحرية كان ينقل جانب من بضائع الشرق الى بلاد مصر والشام . ومن الخير ان نتوقف قليلاً في ميناء ظفار لنشاهد ضرباً من الدعاية التجارية التي كان يستخدمها اهل ذلك الزمان لاستجلاب التجار الى مرافئهم . « وهم اهل

(١) رحلة ابن بطوطة (طبعة Defrémery et Sanguinetti باريس ١٨٧٤–٧٩) م ٤ ص ٢٦٤–٢٦٥ (٢) م ٢ ص ١٤

ظفار ؛ اهل تجارة لا عيش لهم الاّ منها ومن عادتهم انهُ اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صندوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب او وكيله ولقربان وهو الرئيس وللكبراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بخلعة الرأس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وامير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثاً وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلاباً لاصحاب المراكب »[1] ومن الطرق البحرية الثانوية ايضاً تلك التي كانت قاعدتها مدينة عدن ، تسير منها الى زيلع على شاطىء الحبشة وتمتد الى بلاد سفالة المشهورة بالذهب والى جزيرة مدغشكر التي كانت تعرف عند العرب بجزيرة الواقواق ؛ ومنها ايضاً الطرق البحرية التي كانت تخترق البحر الابيض المتوسط والتي ازدهرت في العهد الصليبي خاصة عند ما تقارب الشرق والغرب واتصلت حياتهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية اتصالاً قويّاً

هذه هي الطرق البحرية للتجارة الاسلامية ؛ على ان الشعوب الاسلامية التي اشتهرت منذ القدم بقوافلها البرية كانت تقطع ايضاً بيضائعها البوادي والجبال وتنقل محصولاتها صادرات شاسعة على ظهور الجمال . فقد كانت هناك طرق برية الى الهند والصين الاّ انها لم تبلغ من خطر الشأن مابلغته الطرق البحرية لما كان يعترض طريق الهند من الجبال الوعرة وطريق الصين من الشعوب التركية غير المتحضرة التي كثيراً ما كانت تغزو القبائل وتقطع السبل . ولعلنا لا نتعدى الحق اذا قررنا ان اهم الطرق البرية هي الطريق الاوروبية الممتدة من آسيا الوسطى الى روسيا وبلاد البلطيق عن طريق بلاد الخزر والتي يتفرّع عنها طريق آخر الى امبراطورية الروم ، والطرق الافريقية التي كانت تخترق النصف الاعلى من تلك القارة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب

اما الطريق الاوروبية فليس ادل على مداها ومقامها من النقود الاسلامية الوافرة التي عثر عليها في اماكن عديدة في روسيا وفنلندا وبلاد اسوج ونروج . ولا نخال ان التجار المسلمين انفسهم وصلوا الى تلك البلدان الشمالية التي وجدت فيها نقودهم ، بل نرجح انهم لم يتجاوزوا بلاد البلغار الواقعة في منتصف مجرى نهر الفولغا ، الاّ ان وجود النقود الاسلامية في تلك الاماكن القاصية يدل على مدى ما بلغتهُ التجارة الاسلامية من الاتساع ومن الاثر المادي والثقافي في حياة الشعوب القريبة والبعيدة . وكان اهم ما يبتاعه التجار المسلمون بتلك النقود : العبيد وجلود الحيوانات

اما الطرق الافريقية فاهمها ثلاث : اولاً الطريق الشمالية التي كانت تسير من مصر الى المغرب فالاندلس والتي كانت تنتقل عليها ، عدا البضائع والمصنوعات المادية ، بذور الثقافة والحضارة بين شرقي العالم الاسلامي وغربيه ، وثانياً الطريق الشرقية من مصر الى النوبة فبلاد البجة ، وثالثاً الطريق الغربية من المغرب عبر الصحراء الكبرى الى بلاد النيجر . وكان تجار مصر وشمالي افريقيا

(١) م ٢ ، ص ١٩٨

يقضون الشهور الطوال في هذه الرحلات الخطرة الى اواسط افريقيا حتى يعودوا منها وقد حملوا قوافلهم من منتوجاتها الثمينة وهي الذهب والعاج

تلك ايها السادة ، هي اهم الطرق التي كانت تجري بها التجارة الاسلامية في ابان زهوها وازدهارها ولا شك عندي انكم ترجعون الآن بمخيلتكم الى تلك القرون الماضية فتتصورون السفن الاسلامية تمخر عباب بحر الصين والهند ناقلة التحف والمنتوجات الثمينة الى بلادنا ومنها الى بلدان الغرب ، او تراقبون القوافل البرية وهي تجتاز البراري والسهول من اقصى العالم المتمدن في ذلك العهد الى اقصاه ، ولكننا نخطىء كل الخطأ اذا نحن حسبنا ان التجارة الاسلامية كانت تقتصر على نقل منتوجات الصين والهند وافريقيا الى بلدان الغرب ، اذ انها كانت تتناول ايضاً المصنوعات التي تنتجها البلدان الاسلامية نفسها وكلنا يعلم مبلغ ما وصلته الزراعة والصناعة الاسلامية من الرقي والدقة والاتقان فجزيرة العرب كانت ، على قحطها ، تنتج محصولات ثمينة كالبخور والمر واللؤلؤ ، والعراق كان يصدر التمور والخزف والزجاج ، ومن الشام كانت تحمل المحاصيل الزراعية الوافرة لاسيما الفواكه والثمار ، ومن مصر الثياب والستور الملونة المصنوعة من القطن والكتان ، ومن افريقيا الزيت والفستق والزعفران ، ومن خراسان وما وراء النهر الادهان والزيوت العطرية وطراز الوشي وثياب الحرير والشعر ، ومن بلاد الديلم وطبرستان المناديل والاكسية والطيالسة ، ومن خوزستان السكر والفواكه والديباج ، وقد اشتهرت في هذا الاقليم مدينة تستر خاصة فكان ديباجها يحمل الى الدنيا ومنه تصنع كسوة الكعبة في مكة .[1] ويضيق بنا المجال عن تعداد المحاصيل والمصنوعات الغزيرة التي كانت تفيض بها بلاد الاسلام ، وحسبنا بما ذكرنا تلميحاً الى اثر هذه الحياة الصناعية النشيطة في تغزير التجارة الاسلامية الداخلية والخارجية واتساعها

ولعل افضل ما يظهر لنا هذا الاتساع القطعة التالية التي وردت في كتاب « حديقة الورد » — لغولستان — لشاعر الفرس الشهير سعدي قال : وكنت اعرف تاجراً له قافلة كبيرة من الجمال وحاشية من المماليك الخدام ، اضافني ذات ليلة في منزله في جزيرة كيش وظل طول الليل يتكلم عن تجارته واعماله الى ان قال : يا سعدي ، انني ارغب في القيام بسفرة تجارية اخيرة ، اتمها واعتزل التجارة ، قلت : « وما هي هذه السفرة » احمل كبريت فارس الى الصين ، واجلب خزف الصين الى بلاد الروم ، فاستبدل به هناك اقمشة حريرية ، وانقلها من بلاد الروم الى الهند ، واعود بفولاذ الهند الى حلب ، فاحمل زجاج حلب الى اليمن ، وارجع اخيراً بثياب اليمن الى فارس . فاذا وصلت الى وطني بسلام ، اعتزلت التجارة الاجنبية والاسفار البعيدة »[2] . والآن ، بعد هذه الصورة السريعة الخاطفة التي

---

(١) الاصطخري ، مسالك الممالك (طبعة دي غويه — ليدن ، ١٩٢٧) ص ٩٤ — ٩٣ . راجع عن هذه المنتوجات ما يذكره المقدسي عن «التجارات» (٢) يتصرف في الترجمة المثبتة في كتاب J. W. Thompson: Economic and Social History of the Middle Ages ص ٣٥٩

رسمناها للتجارة الاسلامية لابدَّ ان نتساءل عن أثر هذه الحركة التجارية في حضارة الشرق والغرب وفي ذلك التفاعل القوي بينهما الذي كان محور التمدن في القرون الوسطى

ان أثر التجارة الاسلامية في الحضارة الشرقية والغربية متعدد الوجوه متشعب النواحي ، ولا يمكننا في هذا المقام ان نلمَّ الاَّ ببعض هذه الوجوه والنواحي البارزة . فنجد اولاً ان الحركة التجارية الاسلامية ، التي بلغت من المدى والاتساع ما وصفنا ، كان لها أثر كبير في تقدم فن الملاحة وفي اكتشاف مجاهل البحر والبر . فاولئك التجار الذين كانوا يجازفون بمراكبهم وقوافلهم في البحور المجهولة والبراري النائية يحتلون المركز الاول بين رحَّالي العالم ورواَّده ، والعالم مدين لهم بالمعلومات الجغرافية التي جمعوها في رحلاتهم البعيدة ، ولعلَّ من ابرز الادلَّة على ذلك ما يروى عن الرحَّالة البرتغالي Vasco de Gama الذي دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ انهُ لما وصل الى شواطىء افريقيا الشرقية كان الذي دلَّه الى طريق الهند محمَّد مسلم يدعى احمد ابن ماجد. ومما يظهر ايضاً سيطرة المسلمين على البحار ويؤيد فضلهم في تكوين الملاحة الحديثة تلك الكلمات العربية العديدة التي نجدها بين المصطلحات البحرية: في admiral مأخوذة عن امير البحر ، و Cable عن حبل ، و barge عن بارجة ، و avarie (eng., average) عن العواريات و chaloupe (eng., shallop) و barque عن بركة الى غير ذلك[1] وكما ان البحر كذلك في البرّ : فان الغرب فضَّل الى اوائل نهضته الحديثة يعتمد على جغرافيي المسلمين ورحاليهم وتجارهم لمعرفة الاقطار النائية كواسط آسيا وبعض اواسط افريقيا الوسطى والشرقية

والتجارة الاسلامية أثر لا يستهان بهِ في الادب العربي . من منا لم يقرأ رحلات السندباد البحري التي ادمجها الكتبة في قصص « الف ليلة وليلة » ؟ اننا اذا نزعنا عن هذه الاخبار ما حبك حولها من الاقصوصة الخرافية وجدنا نواتها تتفق تماماً مع اخبار الرحلات التي دوَّنها لنا بعض تجار المسلمين ورحاليهم كالتاجر سليمان والحسن ابي زيد والمسعودي. فهذه القصص وامثالها التي تحتل مركزاً هامًّا في الادب العربي قد بنيت على اساس الرحلات البرية والبحرية التي كان يقوم بها التجار المسلمون

وأثر ثالث للتجارة الاسلامية هو في نشر الدين الاسلامي ودعوة شعوب الارض الى اعتناقهِ . فالامم الاسلامية لم تعرف ، حتى اوائل العصر الحديث جمعيات تبشيرية منظمة غايتها نشر الدين الاسلامي وتعميمه ، وانما قام بهذا الواجب مثقف على طائفة كل مسلم اينما كان في الارض يتبع في اتمامهِ قول القرآن الكريم : « أُدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن » (١٦ : ١٢٦) . فاذا راجعنا تاريخ انتشار الديانة الاسلامية وجدنا في مقدمة العاملين في هذا الحقل رجالاً ونساءً من مختلف طبقات المجتمع من الملك العظيم الى العامل الحقير، وشاهدنا التاجر في مقدمة هؤلاء العاملين يبشر بوحدانية الله العظيم ورسالة النبي الكريم بين الشعوب الوثنية النائية التي ينزل

(١) راجع مقالة Krumers, "Geography" and "Commerce" في كتاب The Legacy of Islam ص ٢٦٧ ، Lammens, Mots français dérivés de l'Arabe حيث اورد المؤلف هذه الكلمات بحسب ترتيبها الابجدي

في بلادها ويؤثر فيها بورعه وتقواه . ومما حبّب التجارة الى المسلمين انها كانت مهنة نبيهم في فتوته وشبابه ، وقد جاء عنهُ في الحديث الشريف : « عليكم بالتجارة فان فيها تسعة اعشار الرزق »

وقد وضع المستشرق الانكليزي الشهير Sir T. W. Arnold مؤلفاً خاصًّا في تاريخ نشر الدين الاسلامي The Preaching of Islam فصل به بأوضح اسلوب ما كان للتاجر المسلم من الشأن الكبير في نشر دياته بين شعوب افريقية الغربية والوسطى والشرقية وامم الهند والجزر الشرقية وآسيا الوسطى حتى حدود سيبيريا

لكن ابرز اثر للتجارة الاسلامية هو فيما نقلته من ثقافة البلدان الاسلامية والهند والصين الى الغرب المسيحي وما كان لذلك من الفضل في تكوين الحضارة الحديثة . والثقافة — كما تعلمون — تتبع دائماً طريق التجارة وتنتقل مع المصنوعات والمنتوجات المادية وقد كان للتجارة في كل قطر وزمن اثر عظيم في نقل بذور الحضارة وشق طريق المدنية من الشعوب الراقية الى التي دونها رقيًّا وثقافة . وهنا ايضاً يمكننا ان نستدل على ذلك بالكلمات العديدة التي تسرّبت من العربية الى اللغات الاجنبية ، ويطول بنا المقام لو حاولنا ان نعدّد اسماء المنتوجات والمصنوعات المختلفة التي انتقلت الى اللغات للغربية والتي تظهر باجلى بيان الدين المادي والثقافي الذي تدين به شعوب الغرب الحديثة للتجارة الاسلامية التي عرفتها بمصنوعات الشرق وحضارته . وحسبي ان اذكر بعض التعابير التجارية التي تدل ، بانتقالها الى لغات الغرب ، على سيطرة التجارة الاسلامية في القرون الوسطى . tarif من التعريفة ، و risque قد تكون من الرزق و calibre من القالب ، و tare من الطرحة ، و magasine من المخازن و cheque من الصك و douane من الديوان[1] . وفي الاساطير اليونانية التي خلدتها لنا عبقرية هوميروس آلهة جبارة تحوب السماء بثلاث خطوات . ولقد تجرأت هذه الآلهة على ان استعير اجنحة هذه الآلهة واطير بكم فوق ميدان التاريخ الاسلامي الفسيح ، مشيراً الى مجرى واسع غزير كان يروي الحياة الاسلامية ويمتد منها الى البلدان الدانية والنائية فيبعث فيها القوة والنشاط . فاذا كنت قد اسرعت في هذا الطيران ولم اتوقف بكم عند كل منظر من المناظر الخلابة ، فلأن المجال طويل والسفر بعيد ، وحسبي ان اكون لفتُّ انظاركم الى هذه الناحية المجهولة واثرت اهتمامكم فيها

لقد فتح المسلمون العالم فتحاً مزدوجاً : فتحاً سياسيًّا تحت راية الحرب وظلّ السيف والرمح وفتحاً تجاريًّا اقتصاديًّا على متن قوافل البر وسفن البحر . وقد نشأت حول الفتح الاول ضجة عظيمة استوقفت انظار الناس ، ولكنني ارى في هذا الفتح الثاني — وهو جهاد السلم — من اعمال الجد والشجاعة والاقدام ما قد يفوق جهاد الحرب . وإن الاهة التاريخ التي الهمت المؤرخين منذ اقدم العصور الى الآن لن تلبث ان تهب لتنصف الجميع فاذا بعثت روحها في مؤرخي المستقبل وألهمتهم لكتابة التاريخ الاسلامي فصوروا فاتحي المسلمين العظيم التي خرجت من الجزيرة العربية وسادت في البلاد وضموا بجانب الفاتح الباسل ، والعالم الحكيم ، والاداري الحازم التاجر المقدام الذي كان يرود المجاهل ويجوب الفيافي ، والذي ضرب بسهم كبير في نشر الاسلام وفي احياء العلم والمدنية والسلام

(١) مقالة Kramers ، المذكورة اعلاه ، ص ١٠٥ ، وراجع ايضاً كتاب Lammens المشار اليه آنفاً